الواجهات التحليلية والاستنتاجية أن الوحي القرآني ليس نقيضاً - بديلاً - للوحي العقلاني، فهذا ما يستفاد من الآية الكريمة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2]. . ولو فعل ذلك بدءاً لكفى المؤمنين، لكن كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: 54].

لماذا خصت النبوة بأفراد دون الناس؟

وربَّ معترض على حصر النبوة بأفراد معينين، مطالب بحقه أو حق الناس فيها وفي أخذ المنهاج منه سبحانه لتطمئن القلوب وتستقر الأنفس، ويزداد يقين الإنسان بربه، فيقبل على الالتزام بأمره دون شك أو تردد، ولكن هذا الاعتراض ليس إلا وليد رؤية قاصرة، أو هوى، أو جهل، أو ثمرة لحسد يعتمل في القلوب على ما آتاه من فضل لبعض عباده، وليس بينه وبين الحق من نسب ولا سبب وذلك للأسباب التالية:

أ - إطلاق لحرية الاختيار الديني:

إنّ اختصاص بعضهم لأداء أمانة النبوة لكونهم أهلاً للوفاء، ودون الأكثرية من هذا العمل لهو حجة على تقدير الله سبحانه لحرية الاختيار التي أعطاها للإنسان إذ قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3]، لأن الوحي لكل إنسان يمنع اختياره وإراداته ويحدّ من حريته في الطريقة التي يريدها، واتباع المنهاج الذي يؤمن بأفضليته ويحبه ويرضاه، لأن وحي الله لإنسان، ما هو إلا علمه بجزء من الغيب بإحدى حواسه أو بعضها يهتز منه كيانه، فيتصرف وفق المنهاج الذي يملي عليه من عالم الغيب، ولا يبقى له أي

مجال للخيرة في أمر التصديق به، ولا ينفسح له ميدان الإيمان بفكر آخر يرتأيه ومنهاج يختاره لحركته الحياتية، ويؤمن الناس كلهم أجمعون طوعاً أو كرهاً لظهور الحق وانكشافه أمامهم وثبوته لديهم ثبوتاً كالمعادلات الرياضية والخرائط الجغرافية مثلاً، ومن ثم تفقد الحاجة إلى الإيمان باليوم الآخر وتزول الحاجة إلى محاسبة الخلق على ما قدموا، حيث لا ذنب يسجل مع شهود الناس للغيب والرؤية الواقعية بعين البصيرة لجزاء المخالفين، فلا عقاب!

ثم إن الإنسان لا يستحق ثواباً وأجراً وشكراً على قيامه بعمل سيق إليه سوقاً أو دفع إليه دفعاً من غير أن يبذل جهداً في اختياره والانطلاق إليه والإيمان بصدقه وتحمل تبعته، والله تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179].

ب - مراعاة للطاقة الإنسانية العادية

إن حصر النبوة في رجال معدودين لهو رحمة بالإنسان الذي خلق ضعيفاً يتعامل مع الواقع المادي، وينوء بحمل شدائد الحياة اليومية العادية وسلبياتها (كالتعب والمرض والمعاناة الجسدية والنفسية)، ويعجز عن التعامل المباشر مع كثير من القوى (كالنار والكهرباء والتفجيرات الذرية)، فتلقي الوحي ليس أمراً هيناً، بل أُعِدَّ له النبي ﷺ. . أما تأهيل الجميع لهذه المهمة فهو يجعل العملية الاختيارية للخلق معدومة كما أسلفنا و: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124].

ج - برهان على الحكمة

إن اختيار أفراد معينين لأداء بلاغ الدين إلى خلقه والقيام بأمر النبوة، هو

مقتضى الحكمة، ذلك لأننا نلاحظ في دار الدنيا أن التقدم لإشغال أي منصب من مناصب الدولة يتطلب توفر شروط خاصة في المتقدمين من الكفاءة والقابلية والعلم والخلق الحسن، وكلما علا المنصب وارتفعت درجته وترقّت الوظيفة كلما ازدادت شروط القبول وتركزت وتنوعت، فيا ترى هل يتقدم أحد ممن لا تتوافر فيهم الشروط للتعيين في منصب لا يستأهله ومقام لا يستحقه؟ أم أن كل إنسان يوجه عزمه ويحصر أمله في نيل الدرجة التي ترشحها له كفاءاته ومعلوماته؟

أيستشرف الأميون مثلاً أن يصبحوا كتّاباً في الدوائر؟ أيأمل الجنود العاديون في مواهبهم العسكرية وخبراتهم العلمية أن يغدوا قادة للجيوش العصرية المدربة مع فقدانهم لمؤهلاتهم وسماتهم وملكاتهم الفطرية؟ هل بوسع نصف المتعلم أن يتحول أستاذاً في الجامعة مع ضيق أفقه الفكري، وقلة استيعابه للعلم، وضعف حافظته وذاكرته؟ الجواب: كلا، إن تلك الأماني خيالات خداعة، فكل إنسان ميسر لما خلق له من أعمال، والاستعدادات المعطاة للناس منوعة الأبعاد متوازنة موزعة على أفراد المجموعة البشرية في تكافؤ، بحيث لا يحرم أي إنسان من موهبة فطرية تؤهله لأداء دور معين في حركة الحياة، ومن ثم تسير القافلة الإنسانية سيراً حسناً نحو تحقيق الحاجات الحضارية والمدنية بكافة أبعادها، وضمان تقدم الإنسان.. ولما كانت النبوة عملاً يقتضي مواهب فطرية واستعدادات موروثة وسمات ومميزات نفسية وخلقية وإعداداً سابقاً، ولا تتهيأ لكل فرد بحكم تكوينه، إذاً فلابد من اختيار مسبق واختصاص بعض العباد بالملكات المطلوبة، ولا بد من إعداد رفيع لأولئك العباد لأداء وظيفة النبوة، وليكونوا على المستوى الذي يؤهلهم لما يوكل إليهم من مسؤولياتها وأعبائها. ومصداق هذا في آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: 41] وقال أيضاً: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: 39]، وقال أيضاً: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾

[طه: 13] ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: 32]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 33].

د - توزيع للاختصاصات:

إن تخصيص معدودين للقيام بأمر النبوة لهو من حكمة ما يسمى بلسان العصر بتوزيع الاختصاصات، وهذا ما نشهده في دنيانا القريبة حيث تنص الدول الحديثة وقوانينها على إقامة سفراء في البلاد التي ترتبط معها بعلاقات صداقة أو جوار، ويتولى هؤلاء السفراء مهمة التكلم باسم بلادهم، وبيان مواقفها، وآرائها، وملاحظاتها، واعتراضاتها، وتشكراتها، وإنذاراتها، إلى حكومات البلدان التي يقيمون فيها، كما يقومون بالرد على الأسئلة والاستفسارات التي ترد إلى سفاراتهم من المسؤولين، وأصحاب العلائق، وذوي الارتباط، في الأمور التي تخصهم... وإذا ما أراد فرد أن يعلم شيئاً عن بلد ما لحاجته إلى ذلك، فإنه بدلاً من أن يشد رحاله إلى ذلك البلد متكلفاً متاعب ونفقات السفر، فإنه يتوجه رأساً إلى سفير تلك البلاد في عاصمة بلاده ليعرف ما يريد ويطلع على ما يصبو إليه بسهولة ويسر، .. وهكذا الأمر في النبوة على مدار التاريخ؛ إذ كلف الله تعالى الأنبياء عليهم السلام للقيام بأمر النبوة لهدي عباده وإمدادهم بالعلم الذي يحتاجون إليه في المعاش والمعاد، مع الفارق في الأمرين.

لماذا ختمت النبوة؟

لقد أثبتت المصادر الموثوقة، والكتب المنزلة وخصوصاً القرآن الكريم الذي شهد الآخر بصدقه وحفظه من التحريف والتغيير، حدوث النبوة وبعثة الأنبياء عليهم السلام ودعوتهم الناس إلى الإيمان بالله رباً وإلٰهاً، والعمل بما أنزله.. ووجود الأنبياء عليهم السلام وتتابعهم وتواترهم في سائر الأمم والعصور، رغم المسافة الشاسعة والفاصلة الزمانية والمكانية بينهم ورغم اختلاف ألسنتهم، مع استقبال الصالحين لهم بالحب والإيمان بمناهجهم والتوقير والتصديق لهم، ونشر رسالاتهم واستماتتهم دون التفريط بها أو العدوان عليها أو الحد من ظهورها، ووفائهم لتلك الرسالات حتى بعد وفاة المرسلين، برهان على إخلاص الأنبياء لتلك الرسالات وصدقهم في دعوى النبوة، والذين ينكرون النبوة اليوم لا يملكون برهاناً واحداً يثبت ويؤيد فكرهم سوى أن يقولوا مختالين: لو كانت النبوة حقاً فلماذا لا يبعث نبي في هذا العصر؟. أليس لأن دعوة النبوة لا يمكن تمريرها على العقل بعد تفتحه وتوسع آفاقه ورحابة مجالات علمه في العصر الحديث؟! لكن قولهم مردود وحجتهم داحضة وذلك لما يلي:

أ - لقد ختمت النبوة ببعثة نبينا محمد ﷺ، وبرهان ذلك: أن أحداً من الأنبياء المتبوعين لم يدَّعِ أنه خاتم الأنبياء عليهم السلام سوى نبينا ﷺ الذي جاء على لسانه قوله: «**لا نبي بعدي**»(1). كما لم يرد في كتاب منزل ما يذكر ذلك الختم عدا القرآن الكريم الذي جاء فيه تسمية الرسول محمد ﷺ بأنه: ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40].

(1) رواه البخاري ومسلم. التجريد الصريح للزبيدي ج 2، ص: 332.

ب - إن حكمة ختم النبوة بنبوته ﷺ هي أن بعثة المرسلين إما للإتيان بشريعة بديلة، أو إظهار معجزات متحدية، ولما كان القرآن الكريم بالغاً الدرجة المرضية في العدل مع إعطاء مجال واسع للاجتهاد، حتى بيَّن هوكنج أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد سابقاً، أن في الإسلام كل استعداد للاجتهاد وبأفضل من القوانين المعاصرة. . وحيث أن القرآن الكريم لا يزال محفوظاً لم يستنفد إعجازه ولم تغب آثاره مع تحديه للكفاءات البيانية والعلمية والقانونية في كل عصر أن تأتي ببديل عنه، أو تكشف ثغرة علمية فيه؛ إذاً فلا حاجة لبعث أنبياء جدد لانتفاء دواعيه.

ج: - إن النبوة لم تختم في القرن التاسع عشر أو العشرين بعد الثورة الصناعية، أو بعد الثورة التكنولوجية وغزو الفضاء وعصر الحاسوب الآلي والهاتف الجوّال، لكنها ختمت قبل أربعة عشر قرناً تقريباً، حتى لا يظن أن الأنبياء والرسل عليهم السلام اختفوا ولم يجرؤوا على الظهور بعد تقدم العلم وتفتح العقل، ومرت قرون خوالٍ دون أن يبعث نبي من عند الله تعالى، وتلك حجة على أن النبوة ختمت بعد رسالة الرسول محمد ﷺ ولأمور غير ما يظنه المنكرون.

د - إذا لم تكن النبوة حقاً ثابتاً وما دعا إليه الأنبياء والرسل عليهم السلام من الإيمان بالله سبحانه صدقاً وعدلاً، وما نزل من عند الله من الغيب مرضياً للعقل العصري والفكر المتطور، فلمَ نجد أتباع الرسل منتشرين في كل بقاع العالم الحديث؟